(٦)

الغزالي.. رجل القرآن

obeikandl.com

obeikandl.com

الغزالي.. رجل القرآن

الشيخ الغزالي رجل قرآني، فهو مع القرآن أبداً، يديم القراءة له، والتأمل فيه والتدبر لآياته.

حفظ الشيخ القرآن حفظاً جيداً منذ صباه، فقلما تند منه آية أو كلمة، أو تلتبس عليه آية أخرى، وهو يتلوه آناء الليل، وآناء النهار، ويقرأ ما تيسر منه في صلواته ــ إماماً أو مأموماً أو منفرداً ــ من حيث وقف وِرْده. ولم أره احتاج إلى المصحف الشريف للقراءة أو للمراجعة، إنما مصفحه صدره.

وهو دائم التدبر لكتاب الله، إيماناً أن ثمرة التلاوة التدبر والتذكر، كما قال الله تعالى في وصف القرآن: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [صّ: ٢٩].

وهو لا يتعامل مع القرآن بعقله وحده، بل بعقله وقلبه معاً. وحين كنا نستمع إليه في صلاة التراويح، ونحن في معتقل الطور، كنا نحس أن للرجل حالاً مع القرآن، يستبشر بوعده، ويرتعش من وعيده، ويتجاوب مع قصصه، ويحيا في عبره وأيام الله فيه، فتلاوته ليست تلاوة محترف ولا غافل، بل تلاوة عقل يقظ، وقلب مشرق، ووجدان حي.

وهذه المعايشة الدائمة للقرآن جعلت معانية ومعارفه بين يديه، وكأنها جنة دانية القطوف، يقطف من ثمارها ما شاء الله.

ومن قرأ كتب الشيخ ــ منذ المراحل الأولى ــ وجده يحسن الاستشهاد بآيات القرآن، ويستنبط منها معاني جديدة، يتخذ معها حجة في معركته ضد الظلم والجهل، والفساد والاستبداد، ساعده على ذلك حسه الأدبي الفياض، وتعبيره البياني النابض بالحياة.

قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت

انظر إلى تعليق الشيخ على قصة الذين ذكرهم الله في سورة البقرة: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ . . .﴾ الآيات [البقرة: ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥].

يقول الشيخ تحت عنوان: (هذه الأمم تموت حتماً)

«الأمة التي تقبل الخنوع وتعطي الدنية من نفسها، لن تحرم من مكان تعيش فيه، فإن سادة العالم لن يرفضوا الاستكثار من الخدم والأتباع. ولا ضير على الواحد منهم، إن سخر مستعمرة واسعة الرقعة، ليعيش ما فيها من حيوان، وما فيها من إنسان، سواسية في العمل له والفناء فيه. بيد أن الشعوب الخادمة لغيرها، ليست إلا شعوباً ماتت فيها المواهب الإنسانية العليا، وارتكست فيها الملكات الذكية اليقظة، فهي توصف بالحياة، كما يصف السادة بالحياة كلاب الصيد التي تلهث بين أيديهم، أو أبقار الحرث التي تعمل في حقولهم! أما هم من الناحية الإنسانية المحضة فأموات.

وكل أمة تنكل عن حمل أعباء الحياة الحرّة الأبية، وتنكص عن الإقدام في ساحات الجهاد والتضحية، وتخشى عواقب المخاطرة والجرأة، فلا بد أن تصدر عليها محكمة التاريخ حكمها بالإعدام.

وهكذا بدأ القرآن يقص أنباء هذه الأمة التي فرّت من تكاليف الحياة فأدركها الموت! : ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

فحقت عليهم كلمة العذاب، وماتوا في الديار التي عجزوا عن الدفاع عنها، كما تموت الآن شعوب كثيرة في المستعمرات، وفي الأمم المستقلة اسماً، والمرتبطة مع قاهريها بمعاهدات!

فلما أراد الله أن يعلم هذه الأمة كيف تحيا، أشعرها أن دون نيل الحياة الكريمة، بذل النفس والنفيس، ودفع الضرائب المفروضة على الدم والمال فقال لهم: ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ . . . ﴾ [البقرة: ٢٤٤]، ثم قال لهم: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ . . . ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وهيهات أن تستطيع الأمم الخوارة، دفع ذلك الثمن الغالي! وكيف تدفعه من نفوس هي بها ــ في الحق ــ شحيحة! ومن أموال هي بها ــ في الخير ــ ضنينة؟

وبدأ القرآن يفصل حوادث هذه القصة الرائعة. فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

لِمَ تموت الأمم؟

ومن هذه الآية، تعرف مجموعة من أحوال الشعوب المستضعفة، فهي تعرف المجد والحرية والاستقلال، ولكن هتافاً يزحم الجو، وأكفّا يعييها التصفيق. فإذا جد الجد وكشف الأمر عن ساق، وتلفت الوطن يطلب الحماة الذين يغسلون عنه العار لم يجد أحداً من هذه الجموع الحاشدة. . . وقد كان زعيم هذه الأمة خبيراً

بشؤونها، فلما تجمهروا حوله، وغلبتهم فورة الحماسة فصاحوا: نريد القتال! قال لهم: في تثبت المرتاب، ولهجة الحائر: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ [البقرة: ٢٤٦] فازدادت هتافاتهم حدة: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦].

فلما حانت الساعة الفاصلة، ودق النفير العام، لم تر ساحة الجهاد إلا علماً ينشره النسيم ويطويه، على حفنة من الرجال! هم بقايا الجماهير التي طلبت بالأمس الجهاد، ثم صفرت منهم اليوم ميادينه، ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة: ٢٤٦].

سماهم القرآن ظالمين مع أنهم مظلومون، فكيف جازت هذه التسمية؟ إن الظلم نوعان: ظلم الإنسان لنفسه؛ وظلمه لغيره. وكثيراً ما يكون النوع الأول، عاملاً ممهداً لوقوع النوع الثاني، فالذي يقبل الذل والانحناء، يغري الآخرين بالبغي والاعتداء!

وقلما وقع العدوان على ذي أنفة وحمية، فإن الباغي يعرف أن خسائره من وراء ذلك العدوان، أضعاف أرباحه إن كان هناك ربح يجتنى في مثل هذه المعركة. وقلما تتحرك الجيوش للهجوم، إلا على أمة يرجى منها أن تسلّم وتلين، ولذلك كثرت حروب الاستعمار في الشرق وحده، وصدق القائل:

أنصفت مظلوماً فأنصف ظالماً ... في ذلة المظلوم عذر الظالم!
من يرض عدواناً عليه يضيره ... شر من العادي عليه الغاشم!

وسواء كان شراً منه أو دونه، فهو ظالم لنفسه. وسياق الآية هنا يؤكد هذا المعنى، ويحمِّل الأمم النائمة ــ على المظالم ــ أوزار ما تقاسي وتعاني.

الدراسات القرآنية للشيخ

وللشيخ في الدراسات القرآنية المحض جملة كتب.

منها: (نظرات في القرآن) وهو كتاب قديم يتحدث عن بعض علوم القرآن بأسلوب جديد.

ومنها: (المحاور الخمسة للقرآن الكريم) وهو من كتبه الأخيرة، التي بين فيها المحاور الأساسية التي تدور حولها سور القرآن وآياته. وهي: الله الواحد... والكون الدال على خالقه... والقصص القرآني... والبعث والجزاء... والتربية والتشريع.

ومنها: (التفسير الموضوعي للقرآن) وفيه يتحدث عن كل سورة من السور باعتبارها وحدة تدور حول موضوع معين، وهو يحاول أن يرسم (صورة شمسية) لها، وأن يربط أوائل السورة بأواخرها، ويصل بين أطرافها وأوسطها، وأن يتعرف على الروابط الخفية التي تشدها كلها. وللشيخ في هذا المقام نظرات جديدة بالتأمل. وفي مقدمة تفسيره ذكر أنه تأسى في ذلك بالعلامة الشيخ محمد عبد الله دراز، عندما تناول سورة البقرة ــ وهي أطول سور القرآن ــ فجعل منها باقة ملونة نضيدة[1]. وهو أول تفسير موضوعي لسورة كاملة فيما أعتقد.

وقد صدر من هذه الدراسة جزءان، كل جزء يشمل ثلث القرآن، وهو يعمل الآن على الثلث الأخير، ونسأل الله أن يوفقه لإتمامه[2].

---

(١) وذلك في كتابه القيم: النبأ العظيم.

(٢) عرفت من الشيخ أخيراً أنه فرغ منه وسلمه للمطبعة، والحمد لله.

وقد ذكر الشيخ أنه استفاد في نظراته في التفسير من الإمام حسن البنا ــ رحمه الله ــ ففي مجلة (الدعوة) غرة ربيع الأول ١٤١٥هـ يقول: حسن البنا أستاذي الأول في ميادين كثيرة، وكنت ــ وأنا طالب ــ أستمع إلى محاضراته في القرآن الكريم، وأتأمّل معه في النظرات التي كان يرسلها، وكنت أعود إلى بيتي فألخص ما استطعت فهمه من هذه المحاضرات، حتى تجمع لدي كتاب في هذا الصدد، لكنه للأسف ضاع مني، لكن معانيه بقيت في ذاكرتي واستفدت من الإمام الشهيد، في طريقة التفسير التي تعتمد على المعاناة الخاصة، والذوق الشخصي، وذلك لطول تدبره في كتاب الله وشدة ارتباطه به، فقد كانت قدرته خارقة على فتح القلوب لأسرار الوحي. . .

كما ذكر في كتابه: (الغزو الثقافي يمتد في فراغنا) أنه لمح في نظرات الشيخ محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا في (تفسير المنار) مبادىء النظرة إلى موضوع السورة، وأن لها هدفاً ومحوراً تدور حوله آياتها.

في التفسير الموضوعي

عنى الشيخ الغزالي في تفسيره الأخير بالنظر في كل سورة باعتبارها وحدة متكاملة، يمهد أولها لآخرها، ويتمم آخرها أولها. وهو توجه جديد في التفسير، سماه (التفسير الموضوعي) باعتبار موضوعية السورة المفسرة.

ولكن للشيخ عناية قديمة جديدة بالتفسير الموضوعي بالمعنى الآخر، الذي يتبادر إلى الذهن، وهو النظر في الموضوع الواحد، من خلال الآيات المتعلقة به في القرآن، وبيان نظرة الكتاب العزيز إليها على غرار ما فعلناه في كتابنا: (الصبر في القرآن).

وللشيخ في هذا النوع من التفسير جهد مشكور أيضاً، ظهر قديماً في كتابه: (نظرات في القرآن)، وظهر حديثاً في كتابه: (المحاور الخمسة للقرآن الكريم).

وظهر في بعض كتبه قبسات منه، تدل على عمق صلة الشيخ بالكتاب المجيد، وعلى شمول نظرته لما تضمنه من معان وموضوعات شتى.

أولو الألباب في كتاب الله

ولا بأس أن أذكر هنا نموذجاً لهذا اللون من التفسير عند الشيخ حول (أولي الألباب في القرآن). يقول: أشعُر بغضاضة وغضب عندما يُفهم الدين على أنه ركون إلى غيبيات غامضة، أو انسياق وراء مشاعر مبهمة، كأن الإيمان فكر قاعد والإلحاد فكر متحرك، أو أن الإنسان المؤمن يستكين للمجهول. أما الآخرون فيستكشفون الأسرار، ويبحثون عن المعرفة.

ربما كان بعض المنسوبين إلى الدين ردىء النظر عليل الفطرة، فما ذنب الدين إذ يحمل لهؤلاء أو يحمله هؤلاء؟.

لقد رأيت القرآن الكريم يتحدث عن «أولي الألباب» يعني أصحاب العقول في ستة عشر موضعاً، نستطيع عند تدبر كل موضوع منها أن نعرف المستوى العالي لذوي الإيمان الصحيح، وكيف يتحرك العقل المؤمن في كل اتجاه ليقرر الحق، ويقود إليه.

ونكتفي الآن بسرد هذه الآيات المنوهة بقيام الدين وأحكامه على الرشد والصواب لا على الجزاف والفوضى.

في سورة البقرة ثلاث آيات مختلفة السياق والموضوع هي: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وللحكمة مواضعها الحميدة، سواء في تبليغ الدعوة أو في إنفاق المال، أو في أي شأن آخر.

وفي سورة آل عمران آيتان:

الأولى: تتحدث عن عصمة الفكر من البحث فيما وراء المادة؛ لأن هذا النوع من البحوث يقوم على التخمين والتوهم...

والثانية: تطلق العنان للفكر كي يبحث ويستنتج في المادة وأسرارها وقوانينها، وقيام الله عليها، وأحكامه لوجودها.

قال تعالى: في الموضع الأول:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٧].

أما الحث على التأمل في الكون فهو في الموضع الثاني من السورة، قال تعالى:

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

ومعرفة الحق لا تكترث بالتقاليد السائدة، ولا تتقيد بالعرف الشائع، إنها بحث حر لا علاقة له بكثرة الأصوات أو قلتها.

والمغالاة بالحق مطلوبة في وجه المنكرين له، أو النافرين منه مهما كثروا، فهم كما قيل:

إن شئت أن يسود ظنك كله ... فأجله في هذا السواد الأعظم!

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٠].

ولمعرفة التاريخ العام أثر عميق في صوغ العقل ونفعه بتجارب لا حصر لها، فإن حاضر الإنسانية امتداد لماضيها البعيد، ومهاد لمستقبلها المرتقب، وعلى المؤمنين أن يلتمسوا العبرة مما مضى؛ ليصونوا يومهم وغدهم، وهل للتاريخ ثمرة إلا هذا؟ قال تعالى في سورة يوسف:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [يوسف: ١١١].

وهذه الآية ختام لفصل متكامل من التاريخ البشري الحافل، وهو ختام صريح في أن القصص القرآني واقع لا خيال، وإخبار صادق لا تأليف مفتعل كما يشيع بعض المبشرين التائهين.

وفي سورة الرعد حديث مفصل عن الخلال النبيلة التي يستجمعها أولو الألباب، وتضبط مسالكهم كلها، والذي يثير الانتباه هنا هو ارتباط الفضائل الإنسانية بالبصر العقلي! وبراءة المؤمنين من التخبط الذي يقع فيه العميان وكل من ضل الطريق!

قال تعالى في الموضع التاسع من ذكر أولي الألباب:

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الرعد: ١٩، ٢٠].

وفي سورة إبراهيم نجد وصفاً للصراع بين الحق والباطل، والآثار القريبة والبعيدة لهذا الصراع، سواء في دنيا الناس أو في اللقاء الأخير مع رب العالمين.

وقد ختمت السورة بهذه الآية: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

واستمر الشيخ يتكلم عن بقية المواضع التي ذكر بها (أولو الألباب) بهذا النفس، وبهذا البيان. . .

نظرة في ترتيب سور القرآن

وللشيخ الغزالي نظرات وتأمُّلات عميقة حول القرآن ينفرد بها، مثل هذه النظرة في ترتيب السور، التي سجَّلها في كتابه: (علل وأدوية).

كتب الشيخ يقول:

«أحياناً أشعر ــ وأنا أتلو القرآن ــ ببعد المسافة الزمنية بين سورة وسورة، أو آية وآية، وأتساءل: هل إشعار القارىء بهذه المسافة البعيدة مقصود في سوق الآيات وترتيب السور؟

ولأضرب مثلاً لما أعني: في الجزء الأخير من المصحف الشريف تعقب سورةُ النصر سورةَ الكافرين، وسورةُ النصر من آخر ما نزل بالمدينة المنورة، وسورة الكافرين من أول ما نزل بمكة المكرمة، أي أن بين السورتين أكثر من عشرين سنة، يطويها القارىء في لحظات سريعة، وهو ينتهي من هذه ويبدأ في تلك.

السورة الأولى نزلت في غربة الدين وعناء الدعاة وعناد الكافرين. نزلت لترسي دعائم التوحيد العملي، وتمهد له الطريق مهما فدح الثمن وازدادت العوائق.

والسورة الثانية نزلت وبشائر النصر تلوح في كل أفق، والقبائل التي نفرت من التوحيد أول أمرها أخذت تثوب إليه وتقبل عليه، وصاحب الرسالة العظيم يستعد للعودة إلى ربه بمزيد من التسبيح والاستغفار بعدما قضى العمر في جهاد يضني الأبطال ويوهي الجبال.

كلتا السورتين تقابل الأخرى كأن الأولى تصور البذر، والأخرى تصور الحصاد! وأتساءل مرة أخرى: هل هذا الشعور مقصود في ترتيب السور؟

ويعود السؤال على نحو آخر عندما نتدبر سورة (قَ) المكية بعد سورة (الحجرات) المدنية. إن السورة المدنية تبرز طائفة من الآداب المطلوبة في مجتمع مستقر، له قيادة يجب توقيرها وإحسان التلقي عنها، مجتمع له مشكلات يجب التلطف في حلها؛ كي تبقى الأمة موحَّدة الصفوف واضحة الهدف... أما السورة المكية فإن الكلام فيها طال عن البعث والجزاء، وعن قمع الطبائع المتمردة بأهوال النار وشدة الحساب، أو استهواء النفوس النائية بالخيرات الحسان والمغفرة الشاملة.

وبين السورتين قرب معنوي وإن فصل بينهما مكان وزمان. فإن الأخلاق الزكية والسير الطاهرة إنما تنبجس من قلب مؤمن، يعرف الله ويتهيأ للقائه ويرجو وعده ويخشى وعيده.

إن الإيمان بالله واليوم الآخر هو العدو الأول للإباحة والفوضى والعنصر الأول للتسامي والأدب! وكأن مجيء سورة (قَ) بعد سورة (الحجرات) تذكير بمصدر الطاقة الروحية وراء كل تربية ناجحة واتجاه سليم»[1].

حاجة المسلمين إلى القرآن

لقد ألحَّ الشيخ على بيان حاجة المسلمين الماسة إلى القرآن: حاجتهم أفراداً، وحاجتهم أمة، ليعرفوا في ضوء آياته الفلسفة العامة للدين وللحياة، ويؤسسوا نظرتهم الصحيحة إلى الإنسان والكون، وإلى ربهما وخالقهما. وهذه الحاجة تشمل كل مسلم بخلاف السنن والأحاديث.

---

(١) علل وأدوية: ص ٢٥١، ٢٥٢.

فقد يحتاج الصيادون إلى كل ما ورد في الصيد من سنن، وقد يحتاج المغسلون اللحادون إلى كل ما ورد في الأكفان والأغسال من سنن.

أما الصورة العامة للإسلام ورسالته العظمى، فلها شأن آخر ينبغي أن يعرفه عارضو الإسلام في هذا العصر الموّار بشتى الفلسفات والنزعات.

وعلاقة المسلمين بقرآنهم هي أسمى العلاقات وأرسخها، ولذلك يجب أن ندع نفوسنا للقرآن الكريم يشكلها بتوجيهاته وهداياته، ويضبط اهتمامها بشعب الإيمان، فلا يطغى فرع على أصل، ولا يموت فرع بإزاء أصل.

إن الموظف في ديوان المحاسبة قد يحيا في عالم من الأرقام، ولكن هل العالم كله أرقام؟ إن الإسلام دين تحدث في شؤون الحياة كلها، بيد أن القرآن هو الكتاب الذي أعطى الخطة العامة والملامح الرئيسية، ومجموعة الظلال والأضواء التي تكشفها[1].

ضرورة العناية بالقرآن الكريم

وفي مقام آخر يؤكد الشيخ ضرورة العناية بكتاب الله، وتقديمه على ما سواه. يقول:

«الذي أراني مضطراً إلى التنبيه إليه هو ضرورة العناية القصوى بالقرآن نفسه، فإن ناساً أدمنوا النظر في كتب الحديث واتخذوا القرآن مهجوراً فنمت أفكارهم معوجّة، وطالت حيث يجب أن تقصر، وقصرت حيث يجب أن تطول، وتحمسوا حيث لا مكان للحماس، وبردوا حيث تجب الثورة! نعم: مِن هؤلاء مَن ظن الأفغانيين من أتباع أبي حنيفة لا يقلون شراً عن الشيوعيين أتباع كارل ماركس، لماذا؟ لأنهم وراء إمامهم لا يقرؤون فاتحة الكتاب (!). والذهول عن المعاني الأولية والثانوية التي نضح بها الوحي المبارك لا يتم معه فقه ولا يصح دين...

---

(١) علل وأدوية: ص ٢٥٣.

ذكر أبو داود حديثاً واهياً جاء فيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تركَب البَحْرَ إلا حَاجًّا أوْ مُعْتَمِراً أوْ غازِياً في سَبيل الله تعالى فَإنَّ تحْتَ البحرِ ناراً وتحْت النَّارِ بحْراً». هذا الحديث الضعيف المردود خدع به الإمام الخطابي، وعلل النهي عن ركوب البحر بأن الآفة تسرع إلى راكبه ولا يؤمن هلاكه في غالب الأمر...!! والكلام كله باطل، فقد قال المحققون: لا بأس بالتجارة في البحر، وما ذكره الله تعالى في القرآن إلا بحق. قال ــ عز وجل ــ ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤].

إن الغفلة عن القرآن الكريم والقصور في إدراك معانية القريبة أو الدقيقة عاهة نفسية وعقلية لا يداويها إدمان القراءة في كتب السنة، فإن السنة تجيءُ بعد القرآن، وحسن فقهها يجيءُ من حسن الفقه في الكتاب نفسه. وقد ذكر ابن كثير أن الإمام الشافعي قال: «كل ما حكم به الرسول ﷺ فهو مما فهمه من القرآن» فكيف يفقه الفرع من جهل الأصل؟

إن الوعي بمعاني القرآن وأهدافه يعطي الإطار العام للرسالة الإسلامية، ويبين الأهم فالمهم من التعاليم الواردة، ويعين على تثبيت السنن في مواضعها الصحيحة...

والإنسان الموصول بالقرآن دقيق النظر إلى الكون، خبير بازدهار الحضارات وانهيارها، نيّر الذهن بالأسماء الحسنى والصفات العلى، حاضر الحس بمشاهد القيامة وما وراءها، مشدودة إلى أركان الأخلاق والسلوك ومعاقد الإيمان، وذلك كله وفق نسب لا يطغى بعضها على بعض، وعندما يضم إلى ذلك السنن الصحاح مفسرة للقرآن ومتممة لهداياته فقد أوتي رشده»[1].

---

(١) هموم داعية: ص ٥٢ ــ ٥٤، طبعة إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر.

قرآن واحد

ويؤمن شيخنا الغزالي بأن الله قد حفظ هذا القرآن فنقلته الأمة نقلاً متواتراً بلفظه ومعناه، وتوارثته الأجيال، محفوظاً في الصدور، متلواً بالألسنة، مكتوباً في المصاحف، وأنه لا يوجد عند المسلمين جميعاً إلا قرآن واحد، يتعبدون بتلاوته، ويرجعون إليه؛ ليأخذوا منه الهدى والنور، ويعرفون منه حكم الله تعالى في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والآداب.

يقول الشيخ حفظه الله ورعاه:

«لا يعرف التاريخ إلا قرآناً واحداً منشور النسخ بين جماهير المسلمين من ليلة القدر الأولى إلى يوم الناس هذا، ولم يحدث خلاف على هذه الحقيقة خلال أربعة عشر قرناً مضت، فكتاب المسلمين واحد. وقد حاول بعض المستشرقين الصغار أن يختلق ريبة حول ذلك، فزعم أن عند الشيعة مصحفاً آخر، وهو زعم ساقط كان أقل من أن نثبته هنا. ولكنا ترخصنا في ذكره ليعلم من يجهل: أن القرآن الذي يحفظه جميع المسلمين ويحتفظون بنسخه في بيوتهم واحد.

ولم يؤثر عن شيعي أو سني أو خارجي أو صوفي: أن لديه قرآناً آخر غير هذا الكتاب الفذ. إن المصحف يطبع في القاهرة فيقتنيه مسلموا إيران، والهند من الشيعة دون أي تردد، عالمين بأن هذا هو الوحي الذي نزل على نبيهم.

وظاهر أن الأقدار ضاعفت أسباب الصيانة لهذا الكتاب، حتى انفرد بهذه المكانة التي لم يظفر بها كتاب سماوي آخر.

ومع كثافة الأسانيد المتواترة التي دفعت بهذا الكتاب إلينا، فإن هناك نظراً آخر جدير بالاحترام كله. إن حديث القرآن عن الله ولقائه ومطالبه من عباده يعلو كثيراً جداً عن نظيره في الكتب الأخرى.

فتالي القرآن يشعر بأن الله واحد واسع، عظيم، أعلى، جدير بالحمد كله، والمجد كله، يستحيل أن ينسب إليه نقص، أو يكون فوق كماله كمال.

وتالي العهد القديم يشعر بأن الله يذكر وينسى، ويخطىء ويصيب، ويفعل ويندم، ويأكل مع الناس، ويلاكمهم أحياناً. . . !

وتالي العهد الجديد يشعر بأن الله تجسد وقتل في سياق غامض حافل بالمتناقضات.

وفي التوراة ــ كما سجلها العهد القديم ــ لا توجد كلمة عن لقاء الله، ولا يوجد ذكر ليوم القيامة. الحديث كله عن الشعب المختار، وحقوقه في هذه الدنيا وواجباته تجاه رب إسرائيل! فأي تديُّن هذا؟!

والحديث عن يوم القيامة في العهد الجديد إما أن يؤخذ عن طريق الرؤى في المنام، أو الإشارات الروحية ليوم الدينونة. . .

والبون بعيد بين هذا الأسلوب الخافت وبين الهدير الذي يسمع دويه في الوعد والوعيد، ومشاهد القيامة، وصور الحساب، والثواب والعقاب، كما تكاثرت في سور القرآن.

والجانب الإنساني الحر ظاهر في القرآن الكريم، فأنت وحدك صانع مستقبلك، ومصور ملامحك، إن أحسنت لم يستطع أحد أن يعترض طريقك إلى الجنة، وإن أسأت لم يستطع أحد أن ينقذك من النار: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦]، فلا وسطاء ولا شفعاء ولا قرابين على نحو ما تصور الوثنية أو على نحو ما تصور الأديان السماوية التي انحرفت.

والقرآن ــ بهذا الواقع المشرق ــ جدير أن يكون الصوت الفذ المنبعث من السماء، فلو لم تدعمه أسانيد التواتر الغنية السخية لقال العقل: ما يصح عن الله إلا هذا.

ومن هنا فنحن نوقن بأن القارات الخمس لا تحوي سجلاً للوحي الأعلى إلا في هذا الكتاب العزيز. .»[1].

---

(١) دستور الوحدة الثقافية: ص ٢٦، ٢٧.